التفسير الموضوعي

تعريفه، أقسامه، مشروعيته، علاقته بأنواع التفاسير الأُخرى

أ. رياض الأخرس
د. كاظم قاضي زاده(*)

مقدمة

نشطت الدراسات الموضوعية والأدبية لنصوص القرآن الكريم في عصرنا الحاضر نشاطاً حافلاً، إذ تجمعت دواع مختلفة تدعو إلى نشاط هذه الدراسات، بعد أن دعت الحاجة إليها نظراً لتقدم العلوم والمعارف وتغير العادات والتقاليد وظروف الحياة عما كانت عليه من قبل، وأصبحت الحاجة ماسة إلى النظر في القرآن للكشف عما فيه من تشريعات وقواعد وسلوك حميد، وللاسترشاد به في كلّ حال من الأحوال وشأن من الشؤون؛ لاشتمال كتاب رب العالمين على كثير من المباحث والموضوعات التي تخدم الفرد والمجتمع، وتدفع بالجميع إلى معرفة أعلى وأرسخ لفهم القرآن، فكان لا بد من التوجه إليه واستيحائه في العلاج الناجع لكل المشاكل السياسية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

وقد كتب عدد غير قليل نسبياً من الكتاب والباحثين والدارسين والطلاب في التفسير الموضوعي. وبدأت الكتابات حول التفسير الموضوعي بالظهور في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري.

ولحسن الحظ فإنّ الذين كتبوا لم يكونوا من مدرسة إسلامية دون أُخرى، بل إننا نجد من مدرسة الخلفاء ومن مدرسة أهل البيت عليهم السلام فيمن كتب في هذا المجال، فضلاً عن أننا نجد المستشرقين أيضاً قد اتجهوا في هذا الاتجاه.

(*) الأستاذ الأخرس باحث من سوريا، والدكتور قاضي زاده استاذ بجامعة طهران.

وتراوح ما كُتب بين كتب ومقالات في المجلات وأُخرى في البوابات على الشبكة العالمية.

وبعض الكتب كانت مفصلة وموسعة، وبعضها أُعيد طباعته وتنقيحه وتطويره عدة مرات(١)، وبعضها الآخر كان مختصراً جداً وفي حدود الخمسين صفحة(٢).

أمّا المقالات التي طُبعت في المجلات فكانت متنوعة من حيث الاهتمام والتوسع والتفصيل والإيجاز(٣).

وبوابات ومواقع الشبكة العالمية أيضاً كان لها نصيب وافر في قضية التفسير الموضوعي(٤).

ومع كلّ التقدير لكل الجهود التي بذلت في هذا المجال في جميع الساحات والوسائل، إلاّ أن حقيقة أُخرى تبدو قائمة ولا يمكن إنكارها، ألا وهي الحاجة لتقديم النظرة الشاملة والكاملة للتفسير الموضوعي ولو من زاوية واحدة منه كزاوية التعريف والتوصيف.

التعريف بالتفسير الموضوعي وأقسامه وأنواعه وما يتعلق به بما يمكن هو هدفنا في هذه المقالة.

اولاً ـ التفسير تعاريف: «التفسير»، «الموضوعي»، «التفسير الموضوعي»

لغة: كلمة عربية أصيلة على وزن «تفعيل» بمعنى تبيين وتكشيف المغطى. والفسر: البيان، يُقال في العربية: فَسَر ـ من باب ضرب ـ فسَرتُ الشيء أي بينته وأوضحته.

هذا هو الحاصل لنا من خلال استقصاء أُمهات المصادر والمراجع اللغوية الأصيلة والكتب التي تعرضت لتعريف التفسير من الكتب المتخصصة المختلفة والمشهورة في هذا المجال.

فقد قال الخليل بن أحمد الفراهيدي(١٠٠-١٧٤ هـ) صاحب كتاب العين، وهو من أقدم المعاجم اللغوية العربية القديمة، الفسر: التفسير، وهو بيان وتفصيل للكتاب، وفَسره يفسره فسراً، وفسره تفسيراً، وكلّ شيء يعرف به تفسير الشيء فهو التفسرة(٥).

وقال الفيروزآبادي (٧٢٩-٨١٧ هـ) صاحب القاموس المحيط: «الفَسْرُ: الإبانَةُ،

وكشْفُ المُغَطَّى، كالتَّفْسيرِ، والفِعْلُ كضَرَبَ ونَصَرَ. ونَظَرُ الطَّبيبِ إلى الماءِ، كالتَّفْسِرَةِ»(٦).

كما قال ابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ) في كتابه لسان العرب، الفَسْرُ: البيان. فَسَر الشيءَ يفسرُه، بالكَسر، وتَفْسُرُه، بالضم، فَسْراً وفسَّرَهُ: أبانه، والتَّفْسيرُ مثله(٧).

وجاء في المعجم الوسيط: فَسَرَ الشيء فسراً: وضّحه. وفَسَّرَ: وَضَّحَ. وفَسَّرَ آيات القرآن الكريم شرحها ووضّح ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام والتفسرة: الشرح والبيان. والتفسير: الشرح والبيان: وتفسير القرآن توضيح معاني القرآن الكريم وما انطوت عليه آياته من عقائد وأسرار، وحِكَم وأحكام(٨).

وقال فخر الدين الطريحي(٩٧٩ ـ ١٠٨٥هـ) صاحب مجمع البحرين: التفسير في اللغة: كشف معنى اللفظ وإظهاره، مأخوذ من الفسر، وهو مقلوب السفر، يقال: أسفرت المرأة عن وجهها: إذا كشفته. وأسفر الصبح: إذا أضاء(٩).

وبهذا يكون هذا الجذر وهذه المادة مستعملة وموضوعة أساساً للكشف بنوعيه المادي في (سفر) والمعنوي في (فسر)، ويكون أحدهما مشتقاً بالاشتقاق الكبير من الآخر، والأرجح أن يكون الفسر مشتقاً من السفر(١٠).

وذهب بعضهم إلى أن «التفسير يستعمل في الكشف الحسي كما يستعمل عن المعاني المعقولة، ولكن استعماله في المعقولات أكثر منه في المحسوسات»(١١).

وهكذا نرى أن معاجم اللغة العامة قديمها وحديثها لم تخرج عن هذا المعنى: (الكشف والبيان والإيضاح). وكذلك شأن كتب غريب القرآن والمعاجم المختصة بتوضيح معاني القرآن الكريم المتأخرة(١٢).

وقد نوّه البعض على ضرورة وجود عنصر الخفاء والغموض في المعنى بدرجة ما حتى يقوم التفسير بدور كشف وإزالة الغموض، وإلاّ فلا يصدق التفسير إذا لم يكن هناك أي غموض في المعنى(١٣).

وأهمية هذا التنويه تكمن في تعيين حدود التفسير وميدان فعاليته؛ لأنّه يحدد أين يكون التفسير تفسيراً وأين لا يكون تفسيراً(١٤).

اصطلاحاً: في البداية لا بدّ أن نشير إلى أن هناك من يعتقد أن التفسير لا تعريف له، وذلك لعدم وجود قواعد تحصل الملكة بممارستها، ويكتفي هؤلاء بالقول:

إن التفسير هو بيان كلام الله وتبيان ألفاظ القرآن.

ثم إن الذين عرّفوا التفسير اصطلاحاً لم يتفقوا على تعريف واحد فقط، بل تعددت تعاريفهم له، ومنهم من اقتصد في التعريف، ومنهم من أطنَب وأطال وذكر له قيوداً احترازية وتوضيحية وما إلى ذلك. ولكن مع اختلافهم فقد داروا جميعاً حول نقطة واحدة التقوا فيها مع الدلالة اللغوية لكلمة التفسير وعلاقتها بالقرآن الكريم الذي هو موضوع البحث وغايته[١٥]. وكنا قد وصلنا في مكان آخر إلى تعريف التفسير بما يلي: التفسير هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها، بحيث تتوافق وتتضافر داخلياً مع بعضها البعض في ضوء هدى القرآن نفسه والعقل، وما صح من النقل الذي يتوافق خارجياً مع الكتاب[١٦].

عنوان تطور دلالة لفظة التفسير

في البداية كانت هذه الكلمة تطلق على شروح الكتب والمقالات العلمية والفلسفية وكانت ترادف شرح وبيان معانيها. ولهذا كان يقال للشروح اليونانية والعربية لآثار أرسطو تفسير[١٧]. ويلاحظ هذا أيضاً في بعض أشعار العرب، كما في شعر أبي تمام مثلاً في مقطع «تفسير بقراط الطبيب»[١٨].

ولكن شيئاً فشيئاً أُطلقت هذه الكلمة واصطلح بها على الكتب الخاصة التي كتبت حول شرح القرآن الكريم[١٩]. وصار من الواضح أن كلمة «تفسير» تدل بصفة خاصة في الإسلام على تفاسير القرآن، وعلى علم التفسير نفسه الذي يعرف باسم «علم القرآن والتفسير»[٢٠].

تنوع التفسير:

لاشك في تنوع التفسير واختلاف مذاهبه وتعدد مدارسه والتباين بين اهتماماته واتجاهاته؛ فهناك التفسير الذي يهتم بالجانب اللفظي والأدبي والبلاغي من النص القرآني، وهناك التفسير الذي يركز على الحديث ويفسر النص القرآني بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام أو بالمأثور عن الصحابة والتابعين، وهناك التفسير الذي يعتبر العقل أيضاً كأداة من عمق التفسير وفهم كتاب اللّه سبحانه وتعالى، وهناك التفسير المتحيز الذي يتخذ مواقف مذهبية مسبقة، ويحاول أن يطبق النص القرآني على أساسها،

وهناك التفسير غير المتحيز الذي يحاول أن يستنطق القرآن نفسه، ويطبق الرأي على القرآن، لا القرآن على الرأي، إلى غير ذلك من الاتجاهات المختلفة في التفسير الإسلامي.

ولكن مع ذلك يمكن تشخيص اتجاهين رئيسيين لحركة التفسير في الفكر الإسلامي، يطلق على أحدهما اسم: الاتجاه التجزيئي في التفسير (أو التسلسلي[٢١] أو الترتيبي[٢٢] أو التحليلي[٢٣] أو الموضعي[٢٤])، وعلى الآخر اسم: الاتجاه الموضوعي (أو التوحيدي في التفسير[٢٥] أو المواضيعي[٢٦]).

تعريف الاتجاه الترتيبي (التجزيئي، التسلسلي، الموضعي):

وهو المنهج الذي يتناول المفسر فيه القرآن الكريم آية فآية وفقاً لتسلسل تدوين الآيات في المصحف الشريف بما يؤمن به من أدوات ووسائل للتفسير من الظهور أو المأثور من الأحاديث أو بلحاظ الآيات الأُخرى التي تشترك مع تلك الآية في مصطلح أو مفهوم، بالقدر الذي يلقي ضوءاً على مدلول القطعة القرآنية التي يراد تفسيرها والسياق الذي وقعت فيه.

التفسير التجزيئي في أوسع وأكمل صوره التي انتهى إليها، تدرّج تاريخياً إلى مستوى الاستيعاب الشامل للقرآن الكريم بالطريقة التجزيئية، وكان قد بدأ في عصر الصحابة والتابعين على مستوى شرح تجزيئي لبعض الآيات القرآنية وتفسير مفرداتها، ومع امتداد الزمن زادت الحاجة إلى تفسير المزيد من الآيات إلى أن انتهى إلى الصورة التي قدم فيها ابن ماجه والطبري وغيرهما من المفسرين في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، فالمنهج التجزيئي في التفسير كان يستهدف فهم مدلول كلمة «اللّه»، وحيث إن فهم مدلول كلمة «اللّه» كان في البداية متيسراً لعدد كبير من الناس وثم بدأ اللفظ يتعقد من حيث المعنى بمرور الزمن وزيادة الفاصل، وتراكم القدرات والتجارب، وتطور الأحداث والأوضاع، وهكذا توسع التفسير التجزيئي تبعاً لما اعترض النص القرآني من غموض، ومن شك في تحديد مفهوم «اللّه»، وتكامل في الطريقة التي نراها في موسوعات التفسير، حيث إن المفسر يبدأ من الآية الأُولى من سورة الفاتحة إلى سورة الناس فيفسر القرآن آية آية؛ لأنّ كثيراً من الآيات بمرور الزمن

صار معناها ومدلولها اللفظي بحاجة إلى إبراز أو تأكيد ونحو ذلك.

وليس المراد بالتجزيئية في هذا المنهج التفسيري أن المفسر يقطع نظره عن سائر الآيات، ولا يستعين بها في فهم الآية المطروحة للبحث، بل إنه قد يستعين بآيات أُخرى في هذا المجال، كما يستعين بالأحاديث والروايات. ولكن هذه الاستعانة تتم بقصد الكشف عن المدلول اللفظي الذي تحمله الآية المطروحة للبحث؛ لأنّ الهدف في كلّ خطوة من هذا التفسير فهم مدلول الآية التي يواجهها المفسر بكل الوسائل الممكنة، أي أن الهدف «هدف تجزيئي»؛ لأنّه يقف دائماً عند حدود فهم هذا الجزء وذاك من النص القرآني، ولا يتجاوز ذلك غالباً، وحصيلة تفسير تجزيئي للقرآن الكريم كله تساوي على أفضل تقدير مجموعة مدلولات القرآن الكريم ملحوظة بنظرة تجزيئية أيضاً، أي أنه سوف نحصل على عدد كبير من المعارف والمدلولات القرآنية، ولكن في حالة تناثر وتراكم عددي دون الكشف عن أوجه الارتباط، ودون الكشف عن التركيب العضوي لهذه المجاميع من الأفكار، ودون تحديد نظرية قرآنية في نهاية المطاف لكل مجال من مجالات الحياة.

هناك تراكم عددي للمعلومات، إلاّ أن الروابط والعلاقات بين هذه المعلومات ـ والتي تحولها إلى مركبات نظرية ومجاميع فكرية، بالإمكان أن نحضّر على أساسها نظرية القرآن لمختلف المجالات والمواضيع ـ ليست هدفاً بالذات في منهج التفسير التجزيئي، وإن كان قد يحصل أحياناً[٢٧].

الاتجاه الموضوعي في التفسير (التوحيدي):

يقوم هذا الاتجاه بدراسة قرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، فيدرس مثلاً عقيدة التوحيد في القرآن أو المذهب الاقتصادي في القرآن، أو سنن التاريخ في القرآن وهكذا لتحديد موقف نظري للقرآن الكريم من ذلك الموضوع[٢٨].

دراسات تسمى بالتفسير الموضوعي:

ظهرت دراسات يمكن أن تسمى بالتفسير الموضوعي أحياناً على ألسنة

البعض، من قبيل: أسباب النزول أو القراءات أو الناسخ والمنسوخ أو مجازات القرآن، وهي ليست من التفسير التوحيدي والموضوعي بالمعنى الاصطلاحي؛ لأنّ هذه الدراسات ليست إلاّ تجميعاً عددياً لقضايا من التفسير التجزيئي لوحظ فيها شيء من التشابه!

وبعبارة أُخرى، ليست كلّ عملية تجميع أو عزل دراسة موضوعية، وإنما الدراسة الموضوعية هي التي تطرح موضوعاً من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، وتتجه إلى دراسته وتقييمه من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده.

ساعد انتشار الاتجاه التجزيئي في التفسير على إعاقة الفكر الإسلامي القرآني عن النمو والتكامل، وعمل على اكتسابه حالة تشبه المراوحة التكرارية في المكان، حتى يمكن القول إن قرونا متراكمة من الزمن مرت بعد تفاسير الطبري والرازي والشيخ الطوسي، لم يحقق فيها الفكر الإسلامي على الصعيد القرآني مكاسب حقيقية جديدة، وظل التفسير خاملا بطيء التغير خلال تلك القرون على الرغم من ألوان التغير التي حفلت بها الحياة في مختلف الميادين[٢٩].

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ثانياً ـ الموضوعي

كلمة «الموضوعي» في تركيب «التفسير الموضوعي» نسبة إلى الموضوع.

والموضوع لغة: مشتق من الوضع ضد الرفع، وهو جعل الشيء في مكان ما بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان[٣٠]، وهذا المعنى ملحوظ في «التفسير الموضوعي»؛ لأنّ المفسر يرتبط بمعنى معين، وموضوع محدد من موضوعات القرآن يبقى معه ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ منه[٣١].

وقد وردت مشتقات هذه الكلمة في القرآن الكريم في أربعة وعشرين موضعاً، ولكنها جميعاً تخلو من هذه اللفظة محل البحث[٣٢].

أمّا «الموضوع» اصطلاحاً: فقد عُرّف بأنه: «ما تنحل إليه موضوعات مسائله». وموضوع العلم هو المراد بقولهم: ("موضوع العلم هو ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية")، فصار كلّ طائفة من الأحوال، بسبب تشاركها في الموضوع علما منفرداً

ممتازاً بنفسه عن طائفة متشاركة في موضوع آخر، وهكذا تمايزت العلوم في أنفسها من خلال تمايز موضوعاتها، وهو تمايز اعتبر على الرغم من جواز الامتياز بشيء آخر كالغاية والمحمول، ومنه يُعلم أن حقيقة كلّ علم مدون من مسائل متشاركة في موضوع واحد، وأن لكل علم موضوعاً يضبط تلك المسائل المتكثرة، التي تعد باعتباره علماً واحداً(٣٣).

ما هو المراد بـ«الموضوعي»؟:

ذكر الشهيد الصدر ثلاثة معان متصورة لمصطلح (الموضوعي)، وهي:

أولاً: (الموضوعية) في مقابل (الذاتية) و(التحيز)، والموضوعية بهذا المعنى عبارة عن الأمانة والاستقامة في البحث، والتمسك بالأساليب العلمية المعتمدة على الحقائق الواقعية في نفس الأمر والواقع، دون ان يتأثر الباحث بأحاسيسه ومتبنياته الذاتية، ولا ان يكون متحيزاً في الأحكام والنتائج التي يتوصل إليها. وهذه (الموضوعية) أمر صحيح ومفترض في كلا المنهجين: (التجزيئي) و(الموضوعي)، ولا اختصاص لأحدهما بها. وربما لأجل دفع هذا التوهم راج على ألسنة بعض الباحثين المغاربة اصطلاح «التفسير المواضيعي» نسبة إلى المواضيع، ولكنها لم تنتشر وتروج حتى الآن في أوساط الباحثين العلمية والأكاديمية.

ثانياً: (الموضوعية) بمعنى ان يبدأ في البحث من (الموضوع)، الذي هو (الواقع الخارجي)، ويعود إلى (القرآن الكريم) لمعرفة الموقف تجاه الموضوع الخارجي.

«فيركز المفسر ـ في منهج التفسير الموضوعي ـ نظره على موضوع من موضوعات الحياة العقائدية او الاجتماعية او الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكرالإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني ويبدأ معه حواراً، فالمفسر يسأل والقرآن يجيب، وهو يستهدف من ذلك ان يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح.

ثالثاً: وقد يراد من (الموضوعية) ما ينسب إلى الموضوع، حيث يختار المفسر

موضوعاً معيناً، ثم يجمع الآيات التي تشترك في ذلك الموضوع فيفسرها[٣٤].

ولا شك ان المعنى الأول ليس موضوعاً للبحث، إذ لا يختلف التفسير الموضوعي عن التفسير التجزيئي في ضرورة توفر هذا الوصف فيه، ويبقى عندنا المعنى الثاني والثالث هما المطروحان بين الشهيد الصدر ومن تابعه، الذي يؤكد على الموضوع الخارجي في مقابل النص وبين الآخرين الذين أخذوا الموضوع بما هو أعم من أن يكون من النص أو من خارجه.

ثالثاً ـ التفسير الموضوعي

تعددت تعاريف التفسير الموضوعي، وعموماً غلب عليها طابع الشرح والتوضيح لمنهج البحث في التفسير الموضوعي[٣٥]،فهو:

ـ«علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر». وبرر بأنه يخلو من التكرار ويشير إلى نوعيه الرئيسيين: التفسير الموضوعي للسورة؛ والتفسير الموضوعي في القرآن الكريم كله[٣٦].

ـ بيان ما يتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصدده[٣٧].

ـ جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية[٣٨].

ـ بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة[٣٩].

ـ علم يبحث في قضايا القرآن الكريم المتحدة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها- على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع[٤٠].

ـ التفسير الذي يلتزم فيه المفسر (موضوعاً) لا موضعاً بعينه، فيجمع الآيات الكريمة من مواضعها، ويقيم منها بناءا متكاملاً يقرر موقف القرآن من قضية ما[٤١].

الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع

من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية، فيبين، ويبحث، ويدرس مثلاً عقيدة التوحيد في القرآن، أو يبحث عن النبوة في القرآن، أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن، أو عن سنن التاريخ في القرآن، أو عن السماوات والأرض في القرآن الكريم، وهكذا(٤٢).

أنواع التفسير الموضوعي

الأول ـ تفسير المفردة القرآنية (تفسير المصطلح القرآني):

أن يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم، ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية. وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها. وقد أصبح كثير من الكلمات القرآنية مصطلحات قرآنية كـ(الأُمّة، والجهاد، والذين في قلوبهم مرض، والخلافة..)، وهذا اللون اهتمت به كتب الأشباه والنظائر إلاّ أنها بقيت في دائرة الكلمة في موضوعها، ولكن يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، مما أبقى تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية..

أمّا المعاصرون، فقد تتبعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواطن، وأظهروا بذلك لوناً من البلاغة والإعجاز القرآني، وقد كان من نتائجها استنباط دلالات قرآنية بالغة الدقة، لم يكن بمقدورهم العثور عليها لولا انتهاجهم هذا السبيل.

الثاني ـ التفسير الموضوعي للقرآن:

تحديد موضوع ما، يلحظ الباحث تعرض القرآن المجيد له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق، أو تطرأ مشكلة أو تطرح قضية فيراد بحثها من وجهة نظر قرآنية باعتبار أن القرآن دستور حياة، ومنهج عمل، فيه الشمول والعموم والكمال والبيان.

وليس بمستغرب أن يجد باحث اهتمام القرآن صريحاً بموضوع معين، فيرى جوانب معالجة الموضوع ودراسته في القرآن كافية وافية، ولكن الغريب حقاً أن

تقترح موضوعاً فتلج إلى عالم القرآن كأنما أُنزل فيه، فيدهشك أن الموضوع قد استوفيت جوانب دراسته في القرآن كأنما أُنزل القرآن من أجله.

وطريقة الكتابة في هذا اللون تتم باستخراج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بها تفسيراً وتأملاً، يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال ما بين يديه من آيات، ثم ينسق بين تلك العناصر بحيث يقسمها إلى أبواب وفصول حسب حاجة الموضوع، ويقدم لذلك بمقدمة حول أُسلوب القرآن في عرض أفكار الموضوع.

ويكون منطلق العرض والاستدلال والدراسة هو آيات القرآن الكريم، مع ربط كلّ ذلك بواقع الناس ومشكلاتهم.

والباحث في هذا اللون يتجنب خلال بحثه التعرض للأُمور الجزئية في تفسير الآيات، فلا يذكر القراءات، ووجوه الإعراب، ونحو ذلك إلاّ بمقدار ما يخدم الموضوع ويتصل به اتصالاً أساسياً مباشراً. والباحث في كلّ ذلك يهتم بأُسلوب العرض لتوضيح مرامي القرآن وأهدافه ومقاصده؛ ليتمكن القارئ من فهم الموضوع وإدراك أسراره من خلال القرآن بجاذبية العرض الشائق، وجودة السبك والحبك، ورصانة الأُسلوب، ودقة التعبيرات، وبيان الإشارات بأوضح العبارات. وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وحتى إن اسم (التفسير الموضوعي) لا يكاد ينصرف إلاّ إليه، والمتتبع لهذا يجده جلياً، وسبب ذلك يتلخص في أمرين:

١ - غزارة الموضوعات التي طرقها القرآن وأشبعها دراسة وبحثاً.

٢- تجدد الموضوعات والمشكلات التي تحتاج إلى بحث من وجهة نظر قرآنية.

الثالث ـ التفسير الموضوعي للسورة:

بعض التوجهات التفسيرية الموضوعية شقت لنفسها طريقاً جديداً في التفسير الموضوعي، وذلك على أساس أن التفسير الموضوعي يجب أن يكون في إطار السورة الواحدة على أساس أن لكل سورة محور موضوعي واحد ـ وهو المقصود

لديهم بالتفسير الموضوعي ـ ومن أساطين هذا النوع من التوجه الشيخ محمد الغزالي، وقد تبعه على ذلك كثيرون، وهذا النوع من التوجه نحو الدراسة الموضوعية للسورة جدير بالتأمل والاهتمام، ولاسيما مع الرأي السائد بين العلماء من أن ترتيب الآيات توقيفي، مما يعني إمكانية الاستفادة من دلالات هذا الأمر. واشترط بعض في دراسة التفسير الموضوعي التعرض لهذا النوع من التفسير؛ لأنّ هذا النوع نوع مستقل في دائرته الخاصة.

فهناك جهود أُخرى بذلت في إطار التفسير الموضوعي، ولكنها لم تتخذ من القرآن كله مادة لخدمة الموضوع، وإنما تناولت السورة القرآنية بوصفها لحمة متلاحمة يفسِّر أولها بآخرها، وتوضح آياتها الغرض الأسمى الذي من أجله نزلت، ومن أجله جمعت في إطار محدد بين دفتي السورة، فهنا يكون التفسير الموضوعي محدداً بأغراض السورة ومناسبات نزول الآيات فيها وما جاء فيها، من موضوعات تفسَّر في إطار السورة ولا تخرج عنها إلاّ قليلاً.

وطريقة البحث فيه: أن يحدد الباحث الهدف أو الأهداف الأساسية للسورة، ثم يختاره أو يختار إحداها إن كانت ثمة أهداف متعددة، ثم يحاول إبراز عناصر بحث هذه السورة للموضوع وتقسيمها وتبويبها، ثم يدرس علاقة كلّ المقاطع بهذا الهدف بدءاً بمقدمة السورة، وانتهاءً بخاتمتها، مع التعرف على أسباب نزولها، ومكان نزولها، وترتيبها من بين سور القرآن، ويبين علاقة كلّ ذلك بهدف السورة عنوان البحث، وسيجد الباحث الصلة بينه وبين الرابطة جلية عند إجالة النظر، وإمعان الفكر، وسيعلم أن للسورة هدفاً واضحاً ترمي إلى إيضاحه وبيانه والاستدلال له وبه، وتفصيل جوانبه وأبعاده وكلّ سورة من القرآن لها شخصية مستقلة تُعلم عند البحث فيها، بل ويمكن أن يكون للسورة أهداف متعددة بينها من الترابط والتعاضد والتداخل شيء يصعب معه التفريق بينهما، أو إفراد إحداهما بالبحث مع إغفال البواقي.

وليعلم أنه ينبغي عند البحث في هذا اللون ألاّ ينطلق الباحث في دراسة موضوع السورة من آيات لم ترد فيها، بل يكون منطلقه آيات ومباحث ومقاطع السورة، وأمّا غيرها فتذكر استئناساً لا تأسيساً، وتوكيداً لا تأصيلاً، واستشهاداً لا استناداً.

وهذا اللون ظفر بعناية القدماء، بل جاءت في ثنايا تفاسيرهم الإشارات إلى

بعض أهداف السورة ومحاولة الانطلاق منها لبيان تفسيرها، كالذي فعله البقاعي في كتابه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور).

وأمّا في العصر الحديث، فقد أولع به سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن)، حيث يقدم لكل سورة ببيان أهدافها الرئيسة أو هدفها الوحيد، وينطلق في باقي تفسير السورة من خلال هذا المحور الذي تتحدث السورة عنه، وقد أُفردت بحوث كثيرة في هذا اللون من التفسير الموضوعي.

تحليل ونقد

في الحقيقة يمكن توزيع التعاريف السابقة وغيرها من التعاريف التي ذكرت، للتفسير الموضوعي إلى مجموعتين رئيستين، هما: مجموعة تحاول أن تدخل التفسير الموضوعي للسورة الواحدة في التعريف، والمجموعة الأُخرى هي التي تركز على المشهور والمتبادر من اصطلاح التفسير الموضوعي الذي حقيقته تتقوم رئيسياً بما يلي:

١ ـ جمع متفرق من الآيات من مختلف السور التي تتحدث عن موضوعٍ أو لفظة أو جملة .

٢ ـ دراسة هذا المجموع بعد تبويبه.

٣ ـ استنتاج الفوائد، واستخلاص الهدايات والعِبَر من هذا المجموع[٤٣].

ولكن، ضمن المجموعة الثانية نجد أن الشهيد الصدر يتميز بالتركيز على نوعية الموضوع، واستحضار التجربة البشرية المرتبطة به، ولذلك فإنّ تعريفه يتحدد بضوابط صارمة تتمثل بما يلي:

أ ـ انتخاب موضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية.

ب ـ استقراء كلّ ما يتصل بهذا الموضوع في القرآن الكريم من آيات.

ج ـ استيعاب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل، وما قدمه الفكر الإنساني من حلول، وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة، ومن نقاط فراغ، أي البدء من واقع الحياة البشرية، وحمل التجربة البشرية إلى القرآن، والتوحيد بينهما، لا بمعنى تحميل هذه التجربة على القرآن، وتأويل النص طبقاً لها، وإنما بمعنى أن المفسر يقوم بعملية يوحّد فيها بين التجربة والنص في سياق بحث

واحد، لكي يستخرج نتيجة هذا السياق، ويستنطق موقف القرآن تجاه هذه التجربة.

د ـ استخلاص أوجه الارتباط بين المدلولات التفصيلية للآيات، وتحليل ودمج وتركيب المدلولات، بغية الوصول إلى مركب نظري قرآني، تنتظم في إطاره المدلولات التفصيلية باتساق متناغم(٤٤).

في هذا الضوء يكتسب التفسير الموضوعي معنى لا تندرج تحته الكثير من المحاولات التي عدَّها مؤلفوها نماذج لهذا التفسير؛ لأنها لم تبلغ أو لم تهتدِ للنظرية القرآنية، وتوقفت عند صياغة المفهوم القرآني فحسب.

إطلاق التفسير الموضوعي

لا شك أن إطلاق اصطلاح التفسير الموضوعي ينصرف إلى التفسير الموضوعي في القرآن الكريم كله دون التفسير الموضوعي للسورة بشكل أساسي؛ وبدرجة أقل التفسير الموضوعي للمفردة القرآنية، ويمكن ملاحظة هذا بسهولة في كتابات السيد محمد باقر الصدر في المدرسة القرآنية، حيث تجاهل تماماً التفسير الموضوعي للسورة القرآنية وأسقطها من دراسته أساساً، ولا شك أن فعل الصدر لم يكن عن غفلة عن هذا الاصطلاح، ولا سيما أنه كان يعرف بعض الذين ركزوا على التفسير الموضوعي للسورة القرآنية من قبيل محمد عبد الله دراز، وكان يعبر عنهم بأنهم من العلماء المتبحرين(٤٥).

لمحة تاريخية عن اصطلاح التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي مصطلح معاصر استخدمه المفسرون والباحثون الجدد(٤٦). فلم يُعرف شيء سابقاً (كتفسير أو علم مستقل) بهذا الاسم على نحو الدقة.

ولكن، هذا الاسم أُطلق حديثاً على أكثر من نوع من الأبحاث والدراسات القرآنية بمعنى أنه استعمل في أكثر من معنى. وتتوحّد جميع هذه المعاني في «جمع المفسر لآيات في موضوع معين، ثم استخلاص رؤية قرآنية حيال هذا الموضوع منها»(٤٧).

ولا تتفق الكتابات التي تدرس التفسير الموضوعي وتنظر له ـ على قلتها ـ في

تحديد منبثق هذا الاتجاه ونشأته في ثقافة المسلمين القرآنية.

وهذه حقيقة يجب أن نأخذها بعين الاعتبار، وهي أن التصنيف في التفسير الموضوعي من الناحية التأصيلية تنظيراً وتقعيداً لا زال في بداياته إلى حد كبير، وغالب المؤلفات التي كتبت فيه عبارة عن محاضرات تم تأليفها للطلاب، ثم جمعت بعد ذلك في كتب، وهذا يؤثر على طبيعة المادة العلمية فضلاً عن نواقص أُخرى من قبيل: الذاتية، وتدني مستوى الموضوعية، وسعة الأُفق في أوساط الدارسين له ـ كما هو الحال عموماً ـ حيث تجد أن كثيراً من الدارسين تجاهل شخصيات كبيرة في هذا المجال لأسباب واهية، كالنظرة المذهبية الضيقة فضلاً عن الكتابة بشكل غير أكاديمي توثيقي دقيق بكل ما للكلمة من معنى، وغير ذلك.

ومن المؤلفات في التفسير الموضوعي على سبيل المثال لا الاستقراء الكامل: كتاب أحمد السيد كومي، وكتاب عبد الستار فتح الله سعيد، وكتاب زاهر الألمعي، وكتاب أحمد جمال العمري دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني، وكتاب مصطفى مسلم مباحث في التفسير الموضوعي، وكتاب صلاح الدين الخالدي التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، وكتاب محمد باقر الصدر المدرسة القرآنية، وكتاب المجريات الاجتماعية والتوجه نحو التفسير الموضوعي.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

التفسير الموضوعي قسيم أم قسم من التفسير الترتيبي؟

في مقابل من يرى أن الاتجاه الموضوعي هو اتجاه مستقل في مقابل الاتجاه التجزيئي، هناك من يرى أن الاتجاه الموضوعي ليس قسيماً، بل هو قسم. فالتفسير الموضوعي ليس قسيماً للتفسير التحليلي والإجمالي، ولا مقابلاً لهما، ولا بديلاً عنهما، وإنما هو أشبه ما يكون بجمع الأقوال في المسألة واستيعابها قبل بيانها والحديث عنها. فالباحث في التفسير الموضوعي يختار لفظاً أو موضوعاً قرآنياً، ثم يفسره تفسيراً تحليلياً أو إجمالياً، بحسب حاجته وغرضه من موضوعه. فهو يبدأ بموضوع وينتهي بمنهج قرآني في الحديث عن هذا الموضوع، وفيما بينهما تفسير قائم على قواعد المفسرين وطرائقهم في بيان معاني كلام الله عزّ وجلّ، ولن يصل الباحث إلى نتيجة سليمة إلاّ إذا سلك طريقةً سليمةً في التعامل مع القرآن وفهم معانيه، وليس ذلك إلاّ

في طريقة المفسرين وكتبهم.

وبناءً على ذلك يتعين الاهتمام باللغة، والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين في هذه المجموعة القرآنية، فإنّها وإن أخرجت عن سياقها وأُعيد ترتيبها لغرض أو لآخر، فلا تخرج عن كونها قرآناً يفسر بما يفسر به باقي كلام الله عزّ وجلّ. ومن هنا يُعلم خطأ من يهمل جانب السنة في هذه الموضوعات، أو يختار من أقوال المفسرين ما يوافق غرضه، دون تمييز الصحيح والراجح من الضعيف والمرجوح، ودون اعتماد على قواعد التفسير وأصول الترجيح فيه.

ثم إن التفسير الموضوعي في أهم أغراضه تفسير دعوي اجتماعي، بل لا يكاد يخرج عن ذلك، وهذه أنواع من اتجاهات المفسرين ظهرت وتميزت في هذا العصر، فهو، أي التفسير الموضوعي ـ إذاً اتجاه في التفسير، كقولنا: التفسير الفقهي أو العلمي أو اللغوي ونحوها.

وبناءً على ذلك فالموضع السليم الذي يرشح للتفسير الموضوعي في كتب أُصول التفسير هو في اتجاهات التفسير وأنواع المصنفات فيه، فهو تفسير دعوي تربوي اجتماعي، يهدف إلى بيان الحقائق القرآنية في موضوعات معينة، واستجلاء المنهج القرآني في تناولها، وتنزيل ذلك كله على واقع الناس ومنهج الحياة. وهو بهذا يؤدي غرضه المراد منه، تماماً كما يؤدي كلٌّ من التفسير اللغوي والفقهي والعلمي غرضه المراد منه.

فلا فرق بين من فسر القرآن بناء على ترتيب النزول، ومن انتقى آيات الأحكام وفسرها ـ دون غيرها ـ من ناحية فقهية، ذاكراً فيها أقوال العلماء واختلافهم، وبين من انتقى آيات ذات موضوع قرآني مشترك، أو لفظة قرآنية، وفسرها تفسيراً علمياً منهجياً موجهاً له وجهة دعوية تربوية، تتصل بحياة الناس، وتلامس واقعهم (٤٨).

نقاش

الحقيقة هي أن الكلام السابق في التفسير الموضوعي بشقوقه الثلاثة، وفي أحسن الأحوال، ناتج عن سوء ظن بالتفسير الموضوعي وبمن يدعو له، أو من سوء فهم، كما أن تقارن التفسير الموضوعي بالظهور مع التفاسير الاجتماعية لا يبرر انتقاص

التفسير الموضوعي عن إمكانية أن يكون قسيماً للتفسير التجزيئي، ويتضح هذا كله من خلال التأمل بإنصاف في ثنايا المقالة(٤٩).

آلية التفسير الموضوعي

في التفسير الموضوعي يعمد الباحث إلى الآيات التي تتصل بموضوع واحد فيجمعها ويدرسها ويكوّن منها الموضوع الذي تتصل به، فإنّ أعوزه إكمال ذلك الموضوع حديث جاء به(٥٠).

ينجلي للقارئ بوضع الآية بجوار الآية الهدف الذي يقصد القرآن إليه، والمعنى الذي يعول عليه(٥١).

وهذا اللون من التفسير يتطلب جمع الآيات المتصلة بالموضوع، وإمعان النظر فيها بوصفها وحدة واحدة، وتحريك النظر فيها لاستكشاف ما يكون فيها من معان ثانية، حتى تستوفى فروع الموضوع الواحد ثم ينتقل إلى موضوع آخر(٥٢).

وقد سمي هذا النوع بالتفسير الموضوعي نسبة إلى وحدة الموضوع الذي يعالجه(٥٣).

وقد يقتصر البحث على مقطع قرآني واحد؛ لأنّ القرآن لم يعرض لموضوع البحث إلاّ في هذا المقطع. ومع ذلك نجد هذا الاختلاف بين المنهج الجديد والمنهج السابق في دراسة هذا المقطع الواحد، حيث تكون مهمة المنهج الجديد استخلاص الفكرة والنظرية من خلال هذا المقطع دون المنهج السابق(٥٤).

فالتفسير الموضوعي ـ إذاً ـ يقوم على أساس دراسة موضوعات معينة تعرض لها القرآن الكريم في مواضع مختلفة أو في موضع واحد، وذلك من أجل تحديد النظرية القرآنية بملامحها وحدودها في الموضوع المعين. وقد خضع هذا المنهج في البحث لقانون التطور الذي يحدث عادة في مناهج البحث، فمر بمراحل متعددة حيث قام المنهج القديم للتفسير بدور الحضانة له، ثم بلغ رشده وانفصل عنه ـ فإذا بالموضوعات القرآنية المختلفة تتخذ صفة البحث المستقل عن (الهيكل العام للتفسير القديم)(٥٥).

التفسير الترتيبي مقدم على التفسير الموضوعي، يعني أن من يريد بحث

موضوع من وجهة نظر القرآن الكريم، لا يستطيع أبداً استنباط موضوعه من القرآن اعتماداً على (المعجم) أو (كشف المطالب)، ثم يسند ذلك إلى القرآن؛ لأنّ هناك كثيراً من المسائل المتعلقة بذلك الموضوع لم تبيّن بتلك اللغة، حتى يتمكن المعجم من تقديمها. علاوة على ذلك، لو أراد شخص أن يكتب تفسيراً موضوعياً ودخلت آية في محل البحث، فعليه أن لا ينظر لهذه الآية بمعزل عن السياق السابق واللاحق، بل يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار السياق والخصائص الموضوعية للآية حتى يقول: إن هذه الآية تبين الموضوع الفلاني إلى هذا الحد.

مباني التفسير الموضوعي

إن التفسير الموضوعي ينطلق من مجموعة من المباني والأُسس، التي هي كالمقدمات المطوية سواء صرح بها المفسر أم لم يصرح بها، ويأتي في مقدمة هذه المباني والأُسس:

قضية جامعية القرآن الكريم لكل شيء، وذلك اعتمادا على أدلة نقلية متعددة. وتتراوح بين أدلة قرآنية كالآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن الكتاب بأنه ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ (النحل: ٨٩) وأنه ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً**﴾ (الإسراء: ١٢) وأنه ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ (الأنعام: ٣٨) إلى غيرها من الآيات المتضافرة في المعنى.

وبين أدلة روائية عن النبيّ ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام مفادها أنه ليس هناك واقعة إلاّ ولله فيها حكم، وما إلى ذلك. كما أن هناك مجموعة من الأدلة الاجتهادية في المقام يمكن الإشارة إلى بعضها بإيجاز شديد (تركاً للتفصيل إلى بحث أكثر توسعاً)، من قبيل: عالمية القرآن، وخاتميته للكتب السماوية باعتبار أن الجامعية هي من لوازم العالمية والخاتمية.

التوافق والانسجام وانتفاء الاختلاف بين آياته، والأدلة على التوافق كثيرة أيضاً تتراوح بين أدلة نقلية، منها أدلة قرآنية من قبيل: قوله تعالى: ﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً**﴾ (النساء:٨٢)

وأدلة روائية من قبيل «يشهد بعضه (ببعض)،» و«ويشد بعضه أزر بعض».

وبين أدلة اجتهادية على أن الحكيم المطلق لا يصدر عنه ما هو متناقض، وما إلى ذلك.

تعدد مستويات المعنى القرآني، والأدلة على تعدد مستويات المعنى عديدة أيضاً، تتراوح بين أدلة نقلية بعضها أدلة قرآنية، وأُخرى أدلة روائية يتضافر معها مجموعة من الأدلة الاجتهادية.

إمكانية تعميق المعنى القرآني، وهذا أيضاً تؤيده مجموعة من الأدلة النقلية تتراوح بين أدلة قرآنية وأُخرى أدلة روائية يسندها أيضاً مجموعة من الأدلة الاجتهادية

وأمّا طرق التعميق فهي عديدة، يأتي في مقدمتها مقارنة الآيات القرآنية بعضها ببعض، كما يمكن ذلك عن طريق كشف الدلالات الالتزامية للآيات وما شابه.

وفقاً للمنهج الموضوعي، القرآن الكريم كله وحدة واحدة يتصل أوله بآخره وآياته ببعضها رغم اختلاف مواضعها وسورها في القرآن، فكان هذا التفسير الموضوعي أوسع وأرحب؛ لأنّ عناصره كثيرة تشمل القرآن الكريم من أوله إلى آخره، المهم وحدة الموضوع المدروس الذي يفسر ويحلل ويدرس. الوحدة الموضوعية شاملة واسعة تمد جوانب الموضوعات بالكثير من العناصر التي توضح الغرض، وتفي بالموضوع، وتسهل فهمه وتناوله(٥٦).

تُجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك ثم تُرتب زمنياً حسب نزولها ما أمكن ذلك، مع الوقوف على أسباب هذا النزول إن وجد، ثم تناولها تناولاً تحليلياً بالتفسير والبيان، وربط الآيات أولها بآخرها مع التعليق والاستنباط، والربط بين القرآن والسنة مع الإحاطة التامة بكل جوانب وأبعاد الموضوع الذي يدرس كما ورد في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكتب التاريخ والأخبار المعتمدة بقصد الوصول إلى الهدف المنشود.

التفسير الموضوعي أو التفسير التوحيدي

يقال للتفسير الموضوعي بأنه توحيدي، باعتبار أنه يوحد بين التجربة البشرية والقرآن الكريم، لا بمعنى تحميل التجربة البشرية على القرآن، بل بمعنى التوحيد بينهما في سياق بحث واحد لاستخراج نتيجة هذا السياق الموحد من البحث، أي استخراج

المفهوم القرآني الذي يحدد موقف الإسلام تجاه هذه التجربة والمقولة الفكرية التي ادخلها، في سياق بحثه.

إذن، التفسير موضوعي وتوحيدي. فكون التفسير موضوعياً، باعتبار أنه يختار مجموعة من الآيات تشترك في موضوع واحد، وهو توحيدي باعتبار أنه يوحد بين مدلولات هذه الآيات ضمن مركب نظري واحد. واصطلاح الموضوعية واصطلاح التوحيدية في التفسير ينسجم مع الفارقين بين النوعين من التفسير.

أهمية التفسير الموضوعي

اعتبر بعض العلماء التفسير الموضوعي علماً مستقلاً قائماً بذاته على أُسس وقواعد ومنهج خاص، فـ «التفسير الموضوعي علم له قواعد وأُسس وأُصول وله منهج وطريقة يلتزم بها الباحث»(٥٧).

كما تفاءل باحثون آخرون بالتفسير الموضوعي لدرجة عدّه: "(تفسير المستقبل، وما زال البحث فيه في بداياته الأولى سواء في الجانب النظري التقعيدي المنهجي أو في الجانب التطبيقي الميداني العملي)(٥٨).

وأكد آخرون أن التفسير الموضوعي تفسير العصر والمستقبل، وله أهمية كبرى عند المسلمين، وحاجتهم إليه ماسة، لما يحققه للمسلمين من فوائد عديدة من حيث صلتهم بالقرآن وتعرفهم على مبادئه وحقائقه، وتشكيل تصوراتهم وتكوين ثقافتهم، ومن حيث عملهم على إصلاح أخطائهم وتكوين مجتمعاتهم، والوقوف أمام أعداء الإسلام.

وأهمية التفسير الموضوعي تكمن في:

أولاً: إبراز وجوه جديدة من إعجاز القرآن الكريم، فكلما جَدّت على الساحة أفكار جديدة ـ من مُعطيات التقدم الفكري والحضاري ـ وجدها المفسر جلية في آيات القرآن لا لبس فيها ولا غموض بعد تتبع مواطن ذكرها في القرآن، فيسجل عندها سبق القرآن إليها، ويدلل بذلك على كونه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنتهي غرائبه ودلائل إعجازه.

ثانياً: التأكيد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن، الذي هو أعلى وأجل أنواع

التفسير، إذ قد يوجد من لا يلجأ إلى القرآن عند إرادة إيضاحه وتفسيره لقصور فيه أو تقصير منه، وبالتفسير الموضوعي ندرك أهمية هذا اللون من التفسير، فتزداد عنايتنا به، وتتعاضد جهودنا لبيانه، فنُكفى بذلك الوقوف عند كثير من مشكل القرآن أو مواطن الخلاف بين علماء الأُمّة في تفسير آياته؛ لورود ما يوضح المراد، ويشفي العليل، ويروي الغليل بالقرآن نفسه.

ثالثاً: إن تجدد احتياجات البشرية، وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية، وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ولا رؤية الحلول لها إلاّ باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم. إذ عندما نجابه بنظرة جديدة أو علم مستحدث، فإنّنا لا نقدر على تحديد الموقف من هذا العلم وتلك النظرية، وحل المشكلة القائمة، وبيان بطلان مذهب إلاّ عن طريق تتبع آيات القرآن، ومحاولة استنباط ما يجب نحو كلّ ذلك.

رابعاً: إن جمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن والسنة يمكنّ الباحث من تنظير أُصول لهذا الموضوع، وفي ضوء هدايات القرآن ومقاصده نستطيع معالجة أي موضوع يَجدّ على الساحة الفكرية.

خامساً: إثراء المعلومات حول قضية معينة. فغالباً ما يُطرح موضوع أو قضية أو فكرة أو مشكلة للبحث، ويبقى أيٌّ من ذلك محتاجاً إلى إشباع البحث ومزيد الدراسة، ويتم تحقيق ذلك من خلال التفسير الموضوعي، بحيث تتبين لذوي الشأن أدلة جديدة، ورؤى مستفيضة، وتفتيق لشيء من أبعاد القضية المطروحة.

سادساً: تأصيل الدراسات أو تصحيح مسارها، فقد نالت بعض علوم القرآن حظاً وافراً من البحث والدراسة، إلاّ أن هناك علوماً أُخر برزت جديدة تحتاج إلى تأصيل بضبط مسارها حتى يؤمن عثارها، مثل: (الإعجاز العلمي في القرآن)، فقد كثر الكتّاب حوله من غير ذوي الاختصاص أكثر من المختصين إلاّ أنه بحاجة ماسة إلى ضبط قواعده ليُتَجَنَب الإفراط فيه أو التفريط، وهذا إنما يتم عبر دراسة موضوعية منهجية لآيات القرآن وهداياته في هذا المجال.

وهناك علوم ودراسات قائمة منذ القدم، لكن المسار الذي تنتهجه يحتاج إلى تصحيح وتعديل، وإعادة تقويم، كعلم التاريخ الذي أخذ منهجاً في سرد الوقائع

والأحداث من غير تعرض لسنن الله في الكون والمجتمع، علماً بأن هذه السنن قد أبرزتها آيات القرآن خلال قصصه بشكل واضح، وهناك انحرافات مبثوثة في كتب التاريخ تخالف ما نصّ عليه في القرآن الكريم، ولن يتم تعديلها وتقويم مثل هذه العلوم إلاّ بطريق استقصاء منهج القرآن في عرضها ودراستها.

سابعاً: حلّ مشكلات المسلمين المعاصرة، وتقديم الحلول لها على أُسس حث عليها القرآن الكريم.

ثامناً: تقديم القرآن الكريم تقديماً علمياً منهجياً لإنسان هذا العصر، وإبراز عظمة هذا الكتاب وحسن عرض مبادئه وموضوعاته، واستخدام المعارف والثقافات والعلوم المعاصرة أداة لهذا الغرض.

تاسعاً: بيان مدى حاجة الإنسان المعاصر إلى الدين عموماً، وإلى الإسلام خصوصاً، وإقناعه بأن القرآن هو الذي يحقق له حاجاته ومتطلباته.

عاشراً: تمكين العلماء والباحثين من الوقوف في وجه المعارضين لهذا الكتاب، وتفنيد آرائهم وأفكارهم الجاهلية.

حادي عشر: عرض أبعاد ومجالات آفاق جديدة لموضوعات القرآن، وهذه الأبعاد تزيد إقبال المسلمين على القرآن.

ثاني عشر: إظهار حيوية وواقعية القرآن الكريم، حيث يصلح لكل زمان ومكان، فلا ينظر الباحثون إلى موضوعات القرآن على أنها موضوعات قديمة نزلت قبل أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمن، وإنما يعرضونها في صورة علمية واقعية تناقش قضايا ومشكلات حية.

ثالث عشر: تحقيق مقاصد القرآن الكريم في حياة المسلمين بسبب تناغم واتفاق مقاصد التفسير الموضوعي مع المقاصد الأساسية للقرآن الكريم.

رابع عشر: التأسيس لتأصيل الدراسات القرآنية وعرضها أمام الباحثين عرضاً قرآنياً منهجياً، وتصويب هذه الدراسات وحسن تخليصها مما طرأ عليها من مشارب وأفكار غير قرآنية.

خامس عشر: إعادة تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها التاريخي باتجاه تفعيل دورها في الحياة الإسلامية للمجتمعات الإسلامية.

سادس عشر: المساعدة على تدبر القرآن الكريم وإمعان النظر فيه، وإحسان فقهه، وفهم نصوصه.

مشروعية التفسير الموضوعي وأدلة جوازه

سيرة النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام والعلماء

سيرة النبي: أمّا سيرة النبيّ فيتّمل لها بالمثال التالي:

عندما نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، فشق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله! وأيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ إنما هو الشرك»[٥٩].

إشكال

الدليل أخص من المدعى

لم يفعل الرسول ﷺ إلاّ تفسير القرآن بالقرآن.. على قاعدة ما تشابه في مكان أحكم في مكان آخر، وما أجمل في موضع فصّل في موضع آخر، فإنّ كان هذا هو التفسير الموضوعي، فهو تفسير كلّ المسلمين الذين يحترمون كتاب ربهم...

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الجواب

لا شك ولا ريب أن التفسير الموضوعي يركز أساساً على تفسير آيات القرآن الكريم بالقرآن الكريم. وهل التفسير الموضوعي شيء آخر غير هذا؟ صحيح أن التفسير الموضوعي في بعض الأحيان يستعين بالسنة الصحيحة أو القطعية للمعصومين عليهم السلام، أو أنه يستعين في بعض الأحيان بالمصادر اللغوية أو القواعد البلاغية وما شابه، ولكن هذا لا يخرج عن الإطار المقبول قرآنياً في التعامل مع آيات القرآن الكريم، وما أُثر عن النبيّ ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى، وحتى في الحالة التي يجب على المفسر أن يستحضر فيها التجربة البشرية بين يدي القرآن، فهو في النهاية يستحضر ذلك من أجل التماهي مع القرآن وتعاليمه، وهذا ليس شيئاً خارجا في حقيقته عن تفسير القرآن بالقرآن، وبالتالي عن التفسير الموضوعي في أرقى مصاديقه.

سيرة الأئمة:

أمّا سيرة الأئمة فيشمل لها بالمثال التالي:

في رسالة للإمّام جعفر بن محمد الصادق (ت١٤٨هـ) يشاهد بوضوح استقراء موضوع معين في الآيات القرآنية، وربطها ببعضها البعض للحصول على صورة واضحة لموضوع الصبر في القرآن الكريم بشكل موجز وبليغ:

ولكن رجعت إلى ما أمر الله عزّ وجلّ به المتقين من الصبر وحسن العزاء، حين يقول لنبيّه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ (الطور: ٤٨).

وحين يقول: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ﴾ (القلم: ٦٨).

وحين يقول لنبيّه ﷺ، حين مثّل بحمزة: ﴿وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:١٦).

فصبر رسول الله ﷺ ولم يعاقب.

وحين يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى﴾ (طه:١٣٢).

وحين يقول: ﴿الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ * أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ (البقرة١٥٦ ـ ١٥٧).

وحين يقول: ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

وحين يقول عن لقمان لابنه: ﴿وَاصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧).

وحين يقول عن موسى عليه السلام: ﴿قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

وحين يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣).

وحين يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

وحين يقول: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

وحين يقول: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ (يونس: ١٠٩)،

وأمثال ذلك من القرآن كثير.

واعلم ـ أيّ عمّ وابن عمّ ـ أنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ لم يبال بضرّ الدنيا لوليّه ساعة قط، ولا شيء أحب إليه من الضرّ والجهد واللأواء[٦٠] مع الصبر، وأنّه ـ تبارك وتعالى ـ لم يبال بنعيم الدنيا لعدوه ساعة واحدة قط.

سيرة علماء المسلمين:ظهرت مؤلفات كثيرة في هذا المجال (الأشباه والنظائر) لمؤلفه مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة(١٥٠هـ)، ذكر فيه الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآية الكريمة.

وإلى جانب هذا اللون ظهرت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغوية، بل جمعت بين الآيات التي تربطها رابطة واحدة أو تدخل تحت عنوان معين، كالناسخ والمنسوخ لأبي عبيد القاسم بن سلام المتوفي سنة(٢٢هـ)، ولا زال هذا الخط مستمراً إلى يومنا هذا.

إشكال

اشتغال اللغويين بدلالات الكلمات حسب اختلاف سياقاتها هو ديدنهم في كلّ زمان وفي كلّ مكان بين المسلمين وبين غيرهم ... وجلّ معاجم الدنيا مبنية على هذا النحو: مادة معجمية ومعان بحسب السياق ... فكيف يكون في هذا السلوك البدهي في علم اللغة ما يدل على نشوء التفسير الموضوعي عند المسلمين؟

وما ذكر من الناسخ والمنسوخ لا يدل على شيء مما نحن فيه ... الناسخ والمنسوخ علم من علوم القرآن كأسباب النزول والقراءات والخط والرسم، وليس منهجاً..وهل القول بأن آية كذا نسختها آية كذا هو من التفسير الموضوعي؟[٦١]

الجواب

في الحقيقة، الإشكال المذكور يمكن أن ينحل إلى إشكالين أساسيين: الأول حول عدم ارتباط السلوك البدهي في علم اللغة بالتفسير الموضوعي، والثاني حول ارتباط النسخ بالتفسير الموضوعي.

أمّا فيما يتعلق بالقسم الأول المتعلق بالعلاقة بين السلوك اللغوي، فنقول: إن

الاستشهاد بهذا الأمر الموجود عندنا في سيرة علمائنا تاريخياً ليس للاستدلال على أن التفسير الموضوعي كان عندهم في ذلك الزمان، وأنهم كانوا واعين له تماماً كوعينا نحن في القرن الخامس عشر الهجري، فهذا لم يقل به أحد، ولا يقول به عاقل، وإنما ما يقوله الجميع هو أن مثل هذه الأعمال في الحقيقة هي بذور جنينية للتوجه نحو حقيقة التفسير الموضوعي بشكل غير واع للاصطلاح الذي راج في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وهذا شيء. والإشكال بأن هذا من قبيل التفسير الموضوعي في مرحلة قديمة جداً شيء آخر، هذا أولاً.

وثانياً: إن ما ذكر حول النسخ في الحقيقة ناشئ من فهم خاطئ لحقيقة النسخ الشرعية واللغوية، فالرائج عند المعاصرين خصوصاً أن النسخ هو بمعنى إزالة وإلغاء تشريع سابق، تماماً كما يحصل اليوم في برلمانات العالم عموماً، في حين أن النسخ بهذا المعنى لا يعقل في حق المشرع والتشريع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو ما التفت إليه عدد كبير من كبار علماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم ومدارسهم ومشاربهم، ونكتفي بذكر بعضهم كالمرحوم السيد الخوئي، والمرحوم أُستاذنا الشيخ علي أكبر غفاري صفت

ومن مدرسة الخلفاء: **عبد المتعال الجبري**، (في كتابه النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه)، وقد تصدى فيه مؤلفه إلى إنكار جميع وقائع النسخ في الإسلام، وهو رسالة صغيرة الحجم، ومن أبرز عناوينه:

١- لا منسوخ في القرآن، ولا نسخ في السنة المنزلة.

٢- أبدع تشريع قيل إنه منسوخ.

ويناقش فيه بعض وقائع النسخ، فينقض، وينكر وقوعه في القرآن؛ لأنّ فيه نسبة للجهل أو التجهيل لله سبحانه وتعالى، وهو منزّه عن ذلك، كأنه في ذلك أراد أن يتبع مسلك أبي مسلم الأصفهاني حيث قيل: إنه كان يرى جواز النسخ عقلاً، وينكر وقوعه سمعاً.

والجبري من حيث النتيجة اتفق عموماً مع البحث القيم الذي كتبه المرحوم آية الله أبي القاسم الخوئي حول النسخ في كتابه (البيان في تفسير القرآن)، وانتهى فيه إلى عدم وجود النسخ في القرآن الكريم بالمعنى المصطلح، وإن قَبِل مورداً واحداً هو نسخ

آية النجوى، ولكن ليس من باب النسخ المصطلح، ولكن من باب التخفيف عن الأُمّة التي هجرت النبيّ خوفاً من دفع صدقة بين يدي نجواهم مع نبيهم سوى علي بن أبي طالب عليه السلام الذي قدم حسب ما تقول الروايات والنقول الكثيرة في هذا المجال، ومما ليس هذا مجال التوسع فيه(٦٢).

صياغة أُخرى للسيرة القديمة للمسلمين

التفسير الموضوعي من حيث المضمون كبدايات جنينية كان معمولاً به منذ القدم، فهو ليس بدعاً من القول ولا حادثة من الأمر.

نقاش

ربّ قائل يقول: إن هناك تناقضاً بين القول بأن التفسير الموضوعي كان معمولاً به منذ القدم، فهو ليس بدعاً من القول ولا حادثة من الأمر والقول بأن التفسير الموضوعي ظهر حديثاً. لذا، لم يتكلم المفسرون السابقون عن قواعده وخطواته وألوانه.. فكيف عمل به السلف وقد ظهر حديثاً؟ ثم كيف نتصور السلف يشتغلون بمنهج ولا يتكلمون عن قواعده وخطواته وألوانه؟

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الجواب

نعم، لم يظهر مصطلح (التفسير الموضوعي) إلا في القرن الرابع عشر الهجري، إلاّ أن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأُولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله.

السيرة العقلائية

إجماع المتخصصين مسلمين وغيرهم على التوجه نحو الدراسات الموضوعية لكثير من المفاهيم والقضايا المطروحة على الساحة الثقافية والدينية، وهذا ما يشاهد من خلال أعداد كبيرة من الكتابات التفسيرية التي تتحدث عن موضوع واحد من القرآن الكريم، أو في القرآن الكريم والسنة المطهرة للمعصوم.

وفيما يتعلق بغير المسلمين نكتفي بذكر مثال إيزوتسو وأثره الشهير (الله

والإنسان في القرآن).

العلاقة بين التفسير الموضوعي وأنواع التفاسير الأُخرى

يستفيد التفسير الموضوعي من المنهج الترتيبي في التفسير من خلال خلاصة المعاني التحليلية التي تشكل مادة علمية تستعمل لتصوير معنى كلي وموضوعي. وبهذا فإنّ أنصار التفسير الموضوعي لا يحاولون أن ينقضوا التقديم بل إنهم يفيدون منه.

العلاقة بين التفسير الموضوعي والتفسير الترتيبي

العلاقة إذاً بين التفسير الترتيبي والتفسير الموضوعي علاقة تكامل، ولا غنى للباحث في التفسير الموضوعي عن التفسير التقليدي (الترتيبي، التجزيئي، الموضعي، التحليلي)، والاستفادة من منهج المفسرين في فهم كلام الله تعالى. إلاّ أنه بعد ذلك يبدأ في جمع الآيات، والمقارنة بينها، للخروج بعد ذلك بقواعد وأُصول في الموضوع الذي تناوله القرآن الكريم في أكثر من موضع.

تقدم التفسير الترتيبي على التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي لا يمكن بدون التفسير الترتيبي، ويمكن ذلك إذا كان الإنسان عارفاً بالموضوع، ويستنبط من القرآن الكريم الموضوع بعد أن ينهي أولاً التفسير الترتيبي، ويأخذ بنظر الاعتبار كلّ آية مع ملاحظة صدر وذيل تلك الآية، وكذلك تلاحظ جميع الآيات التي لها بنحو من الأنحاء علاقة مع الموضوع محل البحث سواء بشكل إثبات وتأييد أو بشكل سلب وتكذيب.

في السير التعليمي يقع التفسير الموضوعي بعد التفسير الترتيبي، أي يدرس القرآن من أوله إلى آخره مع حضور ذهني وعلمي، بحيث لو طرحت آية من القرآن لا يكون بعيد الذهن عنها، وبعد التعرف على مضمون الآيات يأتي إلى التفسير الموضوعي برأسمال التفسير الترتيبي، فيختار موضوعاً من المواضيع ويبحث حوله، أي يقوم بجمع آيات من القرآن تحوي هذا الموضوع ويرتبها، ثم يقوم بجمع وترتيب الروايات الواردة في ذلك المجال، وفي المرحلة النهائية يقوم بترتيب ثالث لما تحصّل

لديه من الآيات والروايات، حتى يستطيع تقديم ذلك بوصفه رأي الإسلام والقرآن والعترة.

كما يجب أن نشير إلى أن الفصل بين الاتجاهين المذكورين ليس حدياً على مستوى الواقع العملي والممارسة التاريخية لعملية التفسير؛ لأنّ الاتجاه الموضوعي بحاجة إلى تحديد المدلولات التجزيئية في الآيات التي يتعامل معها ضمن إطار الموضوع الذي يتبناه، كما أن الاتجاه التجزيئي قد يعثر في طريقه بحقيقة قرآنية من حقائق الحياة الأُخرى، ويختلف الاتجاهان في ملامحهما وأهدافهما وحصيلتهما الفكرية.

العلاقة بين التفسير الموضوعي والترتيبي

إن العلاقة بين التفسير الموضوعي والتفسير الترتيبي هي كالعلاقة بين شرح الحديث مع الفقه، فعندما يجمع بعض العلماء روايات في الجوامع الأولية والمجامع اللاحقة، يبحث بعض آخر هذه الروايات بطرح شرح الحديث ودراسة سنده وتحليل متن الحديث كعلم حديث ترتيبي، ثم يختار الفقيه موضوعاً من المواضيع ـ عادة الفقه هو مواضيع مختارة ـ ويستفيد من هذه الأحاديث لتبيين وتعليم هذا الموضوع الفقهي، طبعاً قد تكون بعض هذه الأحاديث في باب، وبعضها في باب آخر، والشخص الذي يتولى الشرح الترتيبي للأحاديث، يبين الباب من أوله إلى آخره، لكنه لا يستطيع الافتاء اعتماداً على باب واحد، بل يجمع الفقيه الروايات المتعلقة بذلك الموضوع من أبواب متنوعة، وكثيراً ما يدرس عدة أبواب حتى يستطيع ان يكون لديه ترتيب عام للروايات. وبعد هذه المرحلة يزن النتيجة بالقرآن والعقل والاجماع، ويبيّن فتواه في ما يتعلق بذلك الموضوع الفقهي. بناء على هذا، فهناك تفسير موضوعي وتفسير ترتيبي، كما أنّ هناك شرح الحديث والفقه، فالفقه بمثابة التفسير الموضوعي للأحاديث والروايات، وشرح الحديث هو بمثابة التفسير الترتيبي[٦٣].

العلاقة بين التفسير الإجمالي والتفسير الموضوعي

والتفسير الإجمالي هو قريب الصلة بالموضوعي من حيث إن التفسير الإجمالي

يتعامل مع الأهداف والمفاهيم القرآنية الكلية، وهذا العمل التفسيري يملأ جزءاً لا بأس به في عمل التفسير الموضوعي، وذلك في مرحلة الصياغة لمعاني النص القرآني من عناصر الموضوع الكلية.

العلاقة بين التفسير الموضوعي والتفسير المقارن

والتفسير المقارن يغذي الباحث في التفسير الموضوعي ويعطيه لفتات هامة قيمة، سواء كانت لفتات منهجية أو علمية في مجال اللغة أو البلاغة أو موضوعات قرآنية أُخرى، ويستطيع الباحث من خلال هذه المقارنة أن يستفيد أقرب المعاني وأصحها لخدمة التفسير الموضوعي (٦٤).

أسباب ظهور التفسير الموضوعي

من أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير الموضوعي هي:

أولاً: تجدد حاجات المجتمع وبروز أفكار جديدة ونظريات علمية حديثة لا يمكن تغطيتها ورؤية حلول صحيحة لها إلاّ باللجوء إلى التفسير الموضوعي، والطبيعة العامة لهذا العصر حيث شهد تحكم ثقافة غير قرآنية في العالم وقيادتها للبشرية، ووصولها إلى عقول المجتمعات الإسلامية، وتصعيد الغزو الفكري ضد المسلمين بشتى الوسائل الممكنة: المكتوبة، المرئية، والمسموعة، مما دعت الحاجة من المفكرين المسلمين من التوجه إلى القرآن الكريم وتدبّره واستخراج حقائقه ودلالاته التي فيها تفنيد هذه الأفكار الغازية ومواجهتها ووقاية المسلمين من شرورها، وفي هذا حسن إدراك من المفكرين المسلمين المعاصرين لمهمة القرآن الجهادية في المواجهة، مثل قوله تعالى: ﴿**فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً**﴾ (الفرقان:٥٢)

ثانياً: ردة الفعل الإسلامية على القضاء على الخلافة الإسلامية وإقصاء الإسلام عن الحكم والتوجيه، ونشوء مناهج حياة في بلاد المسلمين على أُسس غير إسلامية، وصيرورة الإسلام غريباً في مؤسساته، مما دعا العلماء المسلمين إلى العودة إلى القرآن والالتزام به وتطبيق توجيهاته ومبادئه في حياتهم.

ثالثاً: مواكبة التطور العلمي المعروف في هذا العصر، حيث شهد العصر

الحديث نزوع العلماء والباحثين إلى مزيد من التخصص الدقيق، والتعمق المنهجي العلمي وتجميع الجزيئات المتفرقة في أُطر عامة موحدة.

رابعاً: إصدار أعمال علمية موضوعية عامة تتعلق بالقرآن وألفاظه وموضوعاته ساعدت هذه الدراسات المعجمية العلمية الباحثين في القرآن الكريم، وسهلت عليهم استخراج الموضوعات القرآنية من السور والآيات. ويشار هنا إلى عمل المستشرق جون لابوم المبكر نسبياً في تفصيل آيات القرآن الكريم، حيث وضع لكتابه ثمانية عشر باباً[٦٥] ووزع آيات القرآن عليها، وجعل تحت كلّ باب فروعاً وقد بلغت عدة هذه الفروع ٣٥٠ فرعاً، وجمع تحت كلّ فرع الآيات التي تتعلق به، ثم قام بترجمة الكتاب إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي وترجم مستدركه لإدوار مونتيه، إلاّ أن المؤلف تعسف كثيراً في حشر بعض الآيات، وليس الغرض الأساسي من الآية متفقاً مع الآية الأُخرى، كما فاته كثير من الآيات لم تدخل تحت الجمع، إلاّ أن الكتاب خطوة مفيدة للباحث في لمِّ شتات موضوع ثم الموضوعات القرآنية[٦٦]. وكان هذا بداية لعمل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ومن ثم فتح الباب أمام أعمال موضوعية كثيرة جاءت لاحقاً بحيث صارت تنبو على الحصر تقريباً، وكلها ساعدت بشكل أو بآخر على التوجه نحو التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

وبالطبع لا يفوتنا إلى الإشارة إلى البرمجيات الكثيرة جداً التي زادت وضاعفت من سهولة الرجوع الموضوعي إلى القرآن الكريم، ويكفي من باب المثال الإشارة هنا إلى الجهود الرائعة لمركز الأبحاث الكومبيوترية للعلوم الإسلامية في قم المقدسة.

خامساً: التفات أقسام التفسير في الدراسات العليا في الكليات الشرعية والجامعية، وتشجيع طلاب العلم إلى الكتابة في التفسير الموضوعي، والبحث في الموضوعات القرآنية.

* * *

الهوامش

(١) كمثال على ذلك المدرسة القرآنية لمحمد باقر الصدر. حيث طبع لمرات عديدة في دار التعارف في لبنان، وطبع في مؤتمر عقد عن الشهيد الصدر في طهران، وطبع في الكويت، وطبع في كثير من البلدان، ومع ذلك فإنّه يؤسف على عدم حصول تنقيح وإعادة صياغة جدية لهذا الكتاب الذي كُتب حرفياً كما هو في أشرطة الكاسيت، ولذلك يبدو للمرء تفاوت عظيم بين كتب الشهيد الصدر الأخرى كفلسفتنا واقتصادنا وحلقات الأصول وهذا الكتاب.

(٢) كنموذج لذلك مصادر التفسير الموضوعي لأحمد رحماني، (القاهرة: مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٤١٩/١٩٩٨

(٣) مقالة عبد الجبار الرفاعي، (الاتجاهات الحديثة في التفسير)، قضايا إسلامية معاصرة، العدد الرابع، ١٤١٩ /١٩٩٨، ص١٢؛ ومقالة: خالد توفيق، (التفسير الموضوعي مقارنات بين الصدر وآخرين)، الفكر الإسلامي، السنة السابعة، العددان ٢٤-٢٥ ربيع الثاني ـ ورمضان، ١٤٢١هـ

(٤) أُنظر مثلاً البوابات التالية: ملتقى أهل التفسير ، وتأتي الأشارة الى صفحة الموقع في الهامش (٤٣)

(٥) كتاب العين ٧:٢٤٧، انتشارات أُسوه ـ قم ١٤١٤ هـ/١٣٧٢هـ .، ذيل (فسر).

(٦) محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط،مادة: فسر، مجمع الذخائر الإسلامية ـ قم ١٤١٨هـ

(٧) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب ٥: ٥٥، ط . الأولى، دار صادر ـ بيروت.

(٨) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ٢: ٦٨٨ دار الدعوة استانبول ١٤١٠/١٩٨٩هـ

(٩) فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين ٣: ٤٣٨، دفتر نشر فرهنك اسلامى، طهران ١٤٠٨هـ /١٣٦٧هـ ش).

(١٠) مساعد مسلم عبدالله آل جعفر، أثر التطور الفكري في التفسير:٤٦،بيروت ١٤٠٥/١٩٨٤؛ وانظر: أمين الخولي، ٣٤٨؛ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن٢: ١١٨٩،ط.الثالثة، دار ابن كثير ـ دمشق ١٤١٦/١٩٩٦).

(١١) محمد إبراهيم عبد الرحمن، التفسير النبوي للقرآن الكريم وموقف المفسرين منه:١٤، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة ١٩٩٥.

(١٢) مساعد مسلم عبدالله آل جعفر، مصدر سابق:٤٦.

(١٣) محمد باقر الحكيم، (مادة التفسير)، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية،دار التعارف ـ بيروت، وذكره صاحب دانشنامه قرآنى باسم محمد باقر الصدر.

(١٤) لمزيد من التفصيل يرجع إلى:

رياض الأخرس، المجريات الاجتماعية والتوجه نحو التفسير الموضوعي: ٢٣، دار الهادي ـ بيروت ٢٠٠٦م).

(١٥) مساعد مسلم عبد الله آل جعفر، مصدر سابق: ٤٧.

(١٦) رياض الأخرس، مصدر سابق: ٢٩.

(١٧) أمين الخولي، مصدر سابق:٣٤٨.

(١٨) رياض الأخرس،مصدر سابق: ٢٣.

(١٩) بهاء الدين خرمشاهي، مادة تفسير، دانشنامه قرآنى :٦٣٥،دوستان وناهيدـ تهران ١٣٧٧هـ ش.

٢٤ أحمد الشرباصي، مصدر سابق، ص٨.

(٢٠) المصدر السابق نفسه.

(٢١) لأن المفسر يتسلسل في تفسيره بحسب تسلسل الآيات في السورة والسور في المصحف الشريف.

(٢٢) لأن المفسر يفسر الآيات بحسب ترتيبها في السور وفي القرآن الكريم.

(٢٣) لأن المفسير يركز على اللفظة والجملة ويعمل فيها التحليل والتدقيق بمعزل عن غيرها غالباً.

(٢٤) لأن المفسر يفسر الآيات في موضع واحد لا يتعداه حتى ينتهي من الكلام عليه، ثم ينتقل إلى ما بعده، وهكذا. بخلاف التفسير الموضوعي الذي يجمع الآيات المتفرقة في الموضوع الواحد.

(٢٥) لأن المفسر يوحد بين التجربة البشرية والقرآن الكريم في الموضوع محل البحث، لا بمعنى تحميل التجربة البشرية على القرآن، بل بمعنى الإحاطة بالتجربة البشرية وما وصلت إليه في الموضوع المطروح للبحث، ثم الجلوس في محضر القرآن وسؤاله واستنطاقه عن رأيه في الموضوع المطروح، والتماهي معه استهداءً به، وتقويماً للتجربة البشرية بحسبه.

(٢٦) نسبة إلى المواضيع، مفردها موضوع تجنباً لمحذور فهم الموضوعي بما يقابل المتحيز.

(٢٧) محمد باقر الصدر،المدرسة القرآنيه ٨-١٢،ط.الثانية،دار التعارف ـ بيروت ١٩١٨م.

(٢٨) محمد باقر الصدر، مصدر سابق: ١٣-١٤.

(٢٩) محمد باقر الصدر، مصدر سابق:١٨.

(٣٠) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق٦:٤٥٣؛ إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مصدر سابق ٢: ١٠٣٨،مادة (وضع).

(٣١) أُنظر: مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي:١٥،ط.الثانيه، دار القلم ـ دمشق ١٤١٨/١٩٩٧.

(٣٢) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ذيل (وضع).

(٣٣) محمد باقر الصدر، مصدر سابق: ٢٨-٢٩.

(٣٤) محمد باقر الصدر، المصدر السابق نفسه.

(٣٥) مصطفى مسلم، مصدر سابق: ١٦.

(٣٦) مصطفى مسلم، مصدر سابق: ١٥. ووافقه عليه محمد عبد العزيز الخضري في مقدمة في التفسير الموضوعي، مقال منشور على الشبكة العالمية على العنوان التالي:

http://www.quranway.net/index.aspx?function=Item&id=١٦&lang=

(٣٧) مصطفى مسلم، مصدر عادي سابق: ١٦، ذكره دون أن ينسبه لشخص محدد.

(٣٨) المصدر السابق نفسه.

(٣٩) المصدر السابق نفسه.

(٤٠) عبد الستار السعيد المدخل إلى التفسير الموضوعي: ٢٠؛ زاهر عوض الألمعي ، دراسات في التفسير الموضوعي: ٧. نقلاً عن مصطفى مسلم، مصدر سابق: ١٦.

(٤١) عبد الستار السعيد، مصدر سابق: ١٧-١٨.

(٤٢) محمد باقر الصدر، مصدر سابق ١٢-١٣.

(٤٣) مساعد الطيار، التفسير الموضوعي وجهة نظر أخرى، منشور في موقع ملتقى أهل التفسير في الصفحة التالية:

http://www.tafsir.org/vb/showthread.php?s=&threadid=٥٦٦

(٤٤) محمد باقر الصدر، مصدر سابق: ٢٧ – ٢٩.

(٤٥)(٤٥) نقل لي أكثر من شخص منهم الدكتور عبد الجبار الرفاعي رئيس تحرير مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) الخبير بتراث وفكر الشهيد الصدر أن الصدر كان يقول: بأن "دراز من ملاّئية اهل السنة" أي من علمائهم ذوي العلم والاطلاع الواسع. انظر: رياض الأخرس، مصدر سابق: ١٩٩.

(٤٦) صلاح عبد الفتاح الخالدي، التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق عادي:٢٩ــ٣٢و٣٩، دار النفائس للنشر والتوزيع،ـ عمان ١٤١٨/١٩٩٧). وانظر أيضاً: سيد هدايت جليلي. روش شناسي تفاسير موضوعى قرآن:٢٤، انتشارات كوير ـ تهران ١٣٧٢هـ.ش؛ محمد علي إيازي. المفسرون حياتهم ومنهجم:٣٥، وزارة الثقافه والاراشاد الإسلامى ـ تهران ١٤١٤هـ/١٣٧٣هـ .ش.

(٤٧) مصدر سابق نفسه.

(٤٨) نايف بن سعيد الزهراني ابو بيان، التفسير الموضوعي وجهة أخرى، على البوابة:

http://www.tafsir.org/vb/showthread.php?s=&threadid=٥٦٦

(٤٩) لمزيد من التفريق بين التفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي، ودراسة الفروق والخلفيات التاريخية والعلمية التي عملت على ظهور التفسير الموضوعي في التفسير، بعد أن أظهرته في فترة مبكرة في

الفقه ولاسيما الإمامي منه، يرجع إلى: محمد باقر الصدر ، المدرسة القرآنية، مصدر سابق:١٣-١٩.

(٥٠) أحمد جمال العمري، دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني:٧٣، مكتبة الخانجي - القاهرة ١٤٠٥هـ

(٥١) أحمد السيد الكومي، التفسير الموضوعي:١٣، دار الهدى ـ القاهره ١٩٨٠م.

(٥٢) أحمد جمال العمري، مصدر سابق: ٤٤.

(٥٣) المصدر السابق نسقه.

(٥٤) محمد باقر الحكيم، محاضرات في علوم القرآن:٢٢٧، المجمع العلمي الإسلامي ـ تهران ١٩٩٠م.

(٥٥) المصدر السابق نفسه.

(٥٦) أحمد جمال العمري، مصدر سابق: ٦٤.

(٥٧) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مصدر سابق: ٣٠.

(٥٨) المصدر سابق، ص٤٦.

(٥٩) صحيح البخاري: ح ٣١٨١؛ ومسلم: ح ١٢٤ عن ابن مسعود.

(٦٠) اللأواء: الشدّة. انظر: الصحاح، مادة لأي ٦: ٢٤٧٨.

(٦١) أبو عبد المعز ١٠٤= http://www.tafsir.org/vb/member.php?u

(٦٢) للاستزادة يمكن الرجوع إلى ما كتبه مصطفى زيد، الأستاذ بقسم التفسير للدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً، (النسخ في القرآن الكريم) وهو كتاب جدير بالذكر والاهتمام، وقد عرض المؤلف فيه الآيات المدعى عليها النسخ، وناقشها مناقشة جدية مفيدة مع ذكر الأدلة بالأسانيد، وقام برد وقائع النسخ التي لم تثبت عن النبي(ص) ولم تنقل عنه بسند صحيح، وأبدى إثر كل آية وجهة نظره في دعوى النسخ حتى وصل إلى نهاية المطاف فعّين باباً خاصاً في وقائع النسخ في القرآن الثابتة عنده بأدلة صحيحة، وحصرها في ست آيات فقط. وهو من الكتب التي اعتمد عليها صاحبا محاضرات في علوم القرآن محمد باقر الصدر ومحمد باقر الحكيم(رحمهما الله تعالى).

(٦٣) محمد باقر الصدر، مصدر سابق:١٥.

(٦٤) المصدر السابق:٨ ـ ٩.

(٦٥) عناوينها هي: التاريخ، محمد[ص]، التبليغ، بنو إسرائيل، التوراة، النصارى، ما بعد الطبيعة، التوحيد، القرآن، الدين، العقائد، العبادات، الشريعة، النظام الاجتماعي، العلوم والفنون، التجارة، علم تهذيب الأخلاق، النجاح.

(٦٦) مباحث في التفسير الموضوعي: ٢٢.